

المحاضرة الخامسة:

الفنون والحرف والصناعات والأسواق في الحضارة الإسلامية

أولاً . الفنون الإسلامية:

تخرج المسلمون من الصور المجسمة والتمائيل التي كانت مستخدمة لدى الأمم الأخرى ، فابتعدوا عن تصوير الأشخاص والمخلوقات ذات الروح كالحیوانات والطيور واتجهوا إلى رسم النباتات والأشكال الهندسية المختلفة وقد ظهر تصوير المخلوقات في أواخر العصر الأموي واستمر في العصر العباسي، وتأثرت الفنون الإسلامية من حيث الشكل والتقنية بالفنون الصناعية التي كانت لدى العالم الغربي والشرقي، فقد زين فن الزخرفة الإسلامي كلما أخرج الفنانون والصناع المسلمون ابتداء من السجاد والسروج والسيوف على النوافذ والموائد والأدوات الزجاجية والخزفية والجواهر والمعادن والمصنوعات الخشبية والمنسوجات المختلفة وغيرها ، وعرف المسلمون فن صناعة الخزف الملون ذو البريق المعدي وانتشرت في العالم الإسلامي، وأنتجت المصانع الإسلامية أنواع من الصحون والأواني والمرابا والقوارير والمصاييح فازدهرت صناعة القيشاني في الشام والعراق والمغرب.

واستخدمت صناعة القيشاني في واجهات المساجد والأبنية ، وتقدمت صناعة الزجاج فهنالك الزجاج الشفاف الذي يشبه الزمرد على درجة عالية من النقاء بمصر ، وهناك زجاج مدن الشام الرقيق، والفخار المذهب والفخار المزجج، كما زينت الأدوات الزجاجية بالنقوش والرسومات، واستخدم الزجاج الملون في النوافذ وازدهرت صناعة الزهريات والمكاحل والقوارير والأباريق والمصاييح الزجاجية التي تحتوي زخارف بالخطوط والأشكال الهندسية والنباتات والطيور والسباع وغيرها.

وقد كانت الصناعة الخشبية في غاية الروعة خاصة في صناعة المنابر ومساند الكتب وواجهات المنازل والأثاث وقد تزين بالعاج والجواهر والرسوم والزخارف كما تقدم المسلمون في صناعة النحاس والفضة والفولاذ. وأنتجوا منها الأواني والمباخر والصناديق المطعمة بالذهب والفضة وازدهرت صناعة النسيج وبرع المسلمون في استخدام الخيوط الذهبية كما اشتهرت صناعة السجاد والبسط وغيرها من الصناعات ومن الفنون التي تميزها العرب عن غيرهم فن الخط واستخدامه كعنصر زخرفي وزينت به العمائر والمنتجات المختلفة عند المسلمين ومن الخطوط المميزة الخط الكوفي وخط النسيج.

وقد غلب استعمال الخط الكوفي الذي أصبح فنا زخرفيا جميلا نتيجة ما أدخل عليه من تحسين وزيادة العناية به لأغراض الزخرفة وهو نسبة لخط الكوفة وتطور عن الخط الحميري القديم، أما النسيج فهو سوري الابتكار وقد برز عدد من الكتاب الذين اشتهروا بفن الكتابة منهم الوزير ابن مقلة وعلي بن هلال وياقوت الحموي . وقد زينت كتابات الخط الكوفي واجهات المباني والمساجد والتحف والكتب، كما استخدم المسلمون فن المسلمون فن المنمنمات الفارسي الأصل وهو خروج على التحريم الإسلامي للتصوير فكانت المنمنمات تملأ بصور بشرية وأشجار وأزهار وحيوانات . ومن الفنون التي برزت عند المسلمين فن الموسيقى ويعزى الفضل في اكتشاف النوتة الموسيقية للعرب وذلك بإعطاء رموز رقمية وحروف دلالية للأصوات والتمييز بين درجاتها.

وأفادت الموسيقى العربية من تراث الأوائل وتنوعت الآلات المستخدمة في العصر الإسلامي منها الناي والمزمار والبوق والطنبور والشبابة والصنج والطبل والنقارة والعود والرباب والقانون وغيرها . واحتفظت بعض الآلات باسمها في اللغات الأوروبية وأرخ للموسيقى بعض علماء العرب الكبار مثل الأصفهاني في كتابه الأغاني و الجاحظ وكان بعض العلماء المسلمين علماء كبار في الموسيقى منهم الكندي والفارابي وابن سينا، كما برز العديد من المغنيين في تاريخ الإسلام منهم إسحاق الموصلي وزرياب وغيرهم.

ثانياً . الحرف والصناعات :

ظهرت الكثير من الصناعات والحرف خلال فترة الحضارة الإسلامية ، وبالرغم من ذلك فقد كان المشتغلين بالمهن والصنائع من الموالي حيث انشغل العرب المسلمون بالجهاد، وتركز اهتمام المسلمين في صدر الإسلام على الصناعات العسكرية كالسيوف والرماح والنبال والدروع ، كما تعلموا صناعة المنجنيق كما تفننوا في صناعة الأسرة والنمازق والبسط والجفان والقدورة والأكواب والأباريق والصحاف والموائد والتي كانت تصنع من الفخار أو الزجاج، وتطورت الصناعات في العصر الأموي كصناعة التطريز ، ومما ساهم في تقدم الصناعة وتطورها توفر المواد الأولية كالفضة والنحاس في فارس وخراسان والحديد بالقرب من بيروت ، والملح والكبريت في شمال بلاد فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج ، والذهب من المغرب وبلاد النوبة ، وتوفرت الأخشاب في معظم بلاد الدولة ، كما توفرت المواد اللازمة للصناعات الغذائية كاللبان والمنسوجات المختلفة ، وقد استقطب بعض المدن الإسلامية حذاق أهل الصناعات والحرف ، وتكونت نقابات لكل حرفة تشكل عنها تنظيم خاص بالحرفة فهناك الصناع والأساتذة ورؤساء الحرف ، ولا يدخل الحرفة إلا من تدرّب واكتسب مهارة تسمح بممارستها وهناك إجازة بممارسة المهنة من معلمه ومن رئيس الحرفة.

***. الصناعة النسيجية:**

لقد ورث العرب مصانع النسيج من الشعوب المغلوبة وشجعوا على بقائها وإقامة مصانع جديدة فسيطر العالم الإسلامي على تجارة الحرير التي كانت من أهم التجارة العالمية في العصور الوسطى منها سيطرتهم على طريق الحرير التي امتدت بين الصين وأوروبا عبر مراكز العالم الإسلامي كبغداد والقاهرة ودمشق وأقيمت العديد من المصانع في العراق وبلاد الشام وبلاد فارس وغيرها من البلدان الإسلامية.

وامتازت دمشق بأقمشتها الحريرية الفاخرة التي غزت أوروبا وعرفت باسم الدمقس وهناك الدمشقيات وهي مشجرة وهناك الفستيان نسبة للفسطاط، والموسلين نسبة للموصل وهو من المنسوجات القطنية ، وقد صنع ببغداد ثياب القز لا سيما العبداني والساماني الرفيع ، أيضا المآزر والعمائم والمناديل والثياب القطنية البيض والخز والبز في البصرة ، واشتهرت الكوفة بإنتاج الوشي الفاخر والمذهب وعمائم الخز والديباج التي كانت تصدر إلى اليمن والهند والصين واشتهرت الأندلس ومنها مالقة والمرية بصناعة الحلل الموشية بالذهب والمطرزات ، وهناك إقليم طبرستان الذي اشتهر بمنسوجات الابريس ممن الثياب وغيرها ومناديل القطن.

الصناعة المعدنية:

اشتهرت صناعة السيوف في اليمن والعراق وخراسان، كما برزت الصناعات المعدنية من السلاسل والسكاكين والنصاب في العراق وفي مدينة نصيبين الحابر والمواقد ، وفي مدينة حران صناعة الموازين والآلات الرياضية ومنها الأسطرلاب المستخدم لرصد النجوم ، وتميزت دمشق بالمشغولات النحاسية وفن تكفيت المعادن بالذهب والفضة، واختصت القدس بصناعة القناديل ومدن خوارزم وأصفهان ونيسابور بصناعة الأقفال.

صناعة الزجاج:

كان الزجاج يصنع من صخور رملية خاصة واشتهرت صناعته في العراق ومنها بغداد والبصرة وسامراء والكوفة حيث صنعت الأواني والكؤوس والقنادل والزجاج المنقوش المستعمل في تزيين الشبائيك : وكان يصدر إلى البلدان المختلفة ، وكان يرسم عليه نقوش على شكل أشجار وكتابات وصور حيوانية مختلفة ، كما انتشرت أيضا في دمشق وخاصة الزجاج الرقيق الشفاف وانتقلت هذه الصناعة إلى الأندلس.

صناعة الفخار:

وهي صناعة قديمة حيث يتم صنع الأدوات والأواني المنزلية والمزهريات والقناديل للمساجد والقصور ، وانتشرت في العديد من المدن الإسلامية كبغداد والبصرة والكوفة ، وانتقل إلى بغداد عديد من الصناعات المهرة من البلاد المختلفة فازدهرت فيها صناعة الفخار والخزف منه الخزف ذي الألوان الجميلة الزاهية، انتقلت هذه الصناعة إلى بلاد الشام ومنها دمشق ، ومدن فارس وبلاد ما وراء النهر (سيح، وجيجون) والأندلس ، وقد تميزت مدن فارس بالخزف المعروف بالقاشاني ، والمنسوب إلى مدينة قاشان.

صناعة البسط والسجاد والستائر:

وهي صناعة عربية قديمة بلغت درجة عالية من الرقي والتطور ، فاشتهرت واسط بصناعة السجاد والستور وميسان بالبسط الفاخرة المنسوبة إليه ، والستور الحريرية ، وأنواع الفرش والأقماع والوسائد ، وهناك السجاد المزين بخيوط الذهب والفضة ، وأشهر أنواع البسط السنية صنع بأصفهان كما صنعت البسط بأرمينية وبخارى، ومن الضروري معرفة أن المسلمين ميزوا بين البسط وهي ما يفرش على الأرض ، والنمط وهو ما يعلق للزينة والسجادة التي تستعمل للصلاة.

صناعة الصابون والعمور:

ازدهرت صناعة الصابون في فلسطين ومنها نابلس ، وهناك الصابون الرقي المنسوب للرقية، كما صنع في بلاد ما وراء النهر العديد من المدن منها بلخ وترمز وأرجان، وصنعت العطور والأدهان في بلاد فارس والعراق والشام، وأشهرها ماء البنفسج الذي صنع في البصرة ودهن البنفسج في دمشق ، واختصت بخارى بدهن خاص بالرأس ، وهناك دهن البلسان (البلسم) في مصر ، وتميزت دمشق أيضا بصناعة الكثير من العطور لتوفر أنواع الورود بها، فهناك الرياحين ، وأزهار الآس والنيلوفر والياسمين ، وكان بدمشق سوق يدعى العطارين.

صناعة الجلود:

كانت شهرة مدن ما وراء النهر وبخاصة بخارى والجرجانية بدباغة الجلود وهناك القلانص وجلود الفرو كجلود السمور والمسك والسنجاب والأرانب والثعالب بخوارزم والسروج في مدينة الشاش، واشتهرت بغداد واليمن بصناعاتها الجلدية وكذلك مصر التي كانت تنتج الجلود الثخينة لحمل الماء ، وفي المغرب هنالك جلود الفراء وغيره.

صناعة الورق:

كان الورق يصنع من نبات البردي واستمر استخدامه حتى العصر العباسي إلى أن تم نقل صناعة الورق من الصين - وكان يسمى الكاغد - فكان أول مصنع للورق في بغداد عام 178 هـ / 793 م واستخدم في الدواوين ثم انتقلت صناعتهم لدمشق ثم إلى مصر ، وقد نقلت هذه الصناعة إلى أوروبا عن طريق الأندلس في القرن السادس الهجري وأطلق الأوروبيون عليها اسم (الصحائف الدمشقية).

الصناعة الخشبية:

استخدم الخشب في صناعة المناضد والكراسي والأبواب والسقوف والأثاث المنزلي والمساجد ، وقد تعددت أنواع الأعشاب منها الصندل والسنوبر والسرور والأرز، كما أضافوا لها مواد أخرى كالعاج والقصدير والأبانوس والخشب الأحمر وغيره ، وهناك صناعات أخرى اشتهر بها العالم الإسلامي منها صناعة المجوهرات والحلي ومنها الخواتم والأطواق والخلاخيل، أيضا الصناعات الغذائية كالدبس والسكر والأجبان والألبان وتخفيف الفواكه إضافة للصناعات الدوائية وغيرها.

ثالثا. الأسواق:

احتلت الأسواق التجارية منذ بداية نشأة المدينة العربية موقعا مركزيا بالقرب من المسجد الجامع ، إلا أنه ومع اتساع المدينة استدعت الضرورة ظهور أنماط جديدة من الأسواق والتراكيب التجارية التي تشبه إلى حد ما التجاري للمدينة الحديثة حيث السوق المركزي حول الجامع الكبير، وشوارع تجارية رئيسية تتخذ نمطا طويلا، وتعد الأسواق مرآة الحياة الاقتصادية للمدينة العربية الإسلامية ، وعنوان نشاطها التجاري والصناعي بل والاجتماعي أيضا ، حيث كان لأهل الصنائع والحرف محلات فيها ولكل سلعة أو صنعة أو تجارة سوق مفردة خاصة بها ، مثل سوق البزازين المكتظة بتجار الأقمشة ، ومن يتصل بهم من أصحاب الحرف مثل : النساجين ، والحلاجين والصباغين والخياطين والكوائين، ومن لهم علاقة بصناعة المنسوجات ومثل سوق الوراقين أو الكتبيين، وذكر اليعقوبي أن في بغداد مئة مكتبة ومثل سوق السلاح والنحاسيات والنجارين ، حيث تباع المحفورات الخشبية ومن أشهرها المشربيات، ومثل سوق الحلاويين في القاهرة التي يباع فيها السكر والعسل والحلوى المصنعة منها.

لقد امتازت السوق الإسلامية بنوع من المنشآت التي تعرف بالقياسر ومفردتها قيسارية، وتباع فيها المنتجات الصناعية و السلع الترف وغير ذلك، ولا يزال يوجد في مدينة غناطة قيسارية من هذا النوع، كما امتازت بإقامة

المساجلات الشعرية والأدبية فيها على عادة الأسواق العربية القديمة، مثل سوق المريد في البصرة التي كان يؤمها كبار الشعراء أمثال الفرزدق وجرير في القرن الثاني للهجري، كما امتازت الأسواق الإسلامية بوجود نوع من التآزر والتماسك بين أفراد أصنافها وطبقاتها.

كان الدرهم والدينار شائعين في العهد النبوي وتعامل الناس بهما، وهي دلائل لمعرفة العرب بالنقود من الذهب والفضة والدينار والدرهم وغيرها ، وهذه العملات كانت إما رومانية وإما فارسية ، والعرب لم يكونوا يتعاملون بهذه النقود عددا بل وزنا . ثم ضربت النقود المنقوشة في عهد عبد الملك بن مروان الذي أمر الحجاج بضررها في العراق سنة 74هـ ، ثم تم تحسينها وزيادة جودتها فكانت الهبيرة والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية ، وهناك من قال أن أول من سك النقود هو مصعب بن الزبير سنة 70هـ.

وفي الإسلام تترك السلع للعرض والطلب لتحديد سعرها ، وكانت هناك دواعي لتحديد الأسعار في حالة احتكار التجار وغيرها ، ومراقبة الأسعار من ضمن مهام المحتسب.

بعض المراجع:

- أحمد حامد المجالدي ، هايل خليفة الدهيسات: الحضارة العربية الإسلامية أسسها ومنجزاتها، ط1، كنوز المعرفة، الأردن، 2012.
- الحسيني: آفاق الحضارة العربية الإسلامية، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع الأردن ، 2006.
- الربيعي بن سلامة : الحضارة العربية الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 2009.
- عاطف علي: الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تكوين الحضارة الأوروبية ، ط1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان ، 2009.
- سلامة صالح النعيمات ، وآخرون، الحضارة العربية الإسلامية القاهرة مصر، 2008.
- شايف عكاشة، الحضارة العربية الإسلامية بين التطور والتخلف ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994.